جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية



البراجماتية

دراسة تحليلية نقدية

إعداد الدكتورة

أحلام محمد حكمي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة المشارك
جامعة جازان
عضو مجلس الشورى بالمملكة العربية السعودية



F

اللهم لك الحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، **وملء** ما شئت ربنا من شيء بعد، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، سبحانك ربنا لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أمرك لا يرد، ونعمك لا تعد، وفضلك لا يحد، وجودك ليس عليه قيد، وخزائنك ملآى لا تنفد.

والصلاة والسلام على خير الخلق وأفضلهم، وخاتم الرسل وأكملهم، وأحسن البشر وأعظمهم، إمام المتقين، وسيد الأولين والآخرين، وصاحب الشفاعة يوم الدين، محمد (ρ)، أرسله ربه حجة، وأقام به المحجة، وجعله نورًا وسراجًا مبينًا، اللهم صل وسلم أفضل صلاة وتسليم على أسعد الخلق بك، وأحبهم إليك، وأقربهم منك، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، واجعلنا منهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

أما بعد

هذا بحث في قضية من قضايا العصر الذي نعيشه وهي « الفلسفة البراجماتية » دراسة تحليلية نقدية، فقد انتشرت البراجماتية، وحظيت بالتشجيع من الكثيرين، وقد كان لها أكبر الأثرِ على الكثير من الأفكار، فقد أدى الفكر البرجماتي إلى هدم الأخلاق وزعزعة الإيمان بالأديان، وتدمير المجتمعات، وضياع كرامة الإنسان بعد أن كرمه الله على جميع المخلوقات في الخلق والطبع.

لذا رأيت من الواجب عليَّ كباحثة في محراب العلم أن أحمل بعض العبء للدفاع عن الدين ضد أحد التيارات الهدامة، التي تقوم في أساسها من أجل هدم الأديان وخاصة الدين الإسلامي.

أسـباب اختيـار الموضـوع:

والذي دفعني لاختيار هذا الموضوع عدة أسباب من أهمها:

1- الوقوف ضد تلك الحركات الفكرية الحديثة الهدامة، التي جعلت كل همها هدم الأديان وعلى رأسها الإسلام باستئصال شوكته وإحلال أفكار أخرى مكانه مستعملين في ذلك شتى الوسائل والطرق التي تمكنهم من غرضهم الدنيء، وذلك من خلال دراسة مفهوم البراجماتية وبيان ما فيها من نظرات إلحادية.
2- الرد على هذا الفكر الضال وبيان ما فيه من زيغ وأباطيل.
3- رغبت في بيان ما في الفكر البرجماتي من مناوئته للمنهج الإسلامي - لما فيه من نسبية الحقائق ونشر الإلحاد والإباحية وتغليب المنفعة قبل كل شيء- كي لا ينخدع المفتون بالفكر الغربي.

منهج البحث:

طبيعة البحث تُحتِّمُ على الباحثة استخدام مناهج عدَّة من مناهج البحث العلمي؛ لمُعالجة هذا الموضوع، وأهمها ما يأتي:

1- المنهج التاريخي «الاستردادي»: واستُخدم في التَّعرُّف على الجذور التاريخية للفكر البرجماتي.
2- المنهج التحليلي: واستُخدم في تحليل الأفكار والآراء.
3- المنهج النقدي: واستُخدم في توجيه الاعتراضات على آراء وأفكار الفكر البرجماتي من المنظور الإسلامي.

خطة البحث:

فقد اشتمل هذا البحث على: مقدمة، وفصلين، وخاتمة.

المقدمة: وتحتوي علي أهمية البحث وأسباب اختياره ومنهج البحث وخطته.

الفصل الأول: فقد جعلته بعنوان: معالم الفلسفة البراجماتية، وقد اشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالبراجماتية، ونشأتها.

المبحث الثاني: المعرفة - الحقيقة - الأخلاق – الدين في الفكر البرجماتي.

الفصل الثاني: فقد جعلته بعنوان: موقف الإسلام من البراجماتية، فقد اشتمل على مبحثين أيضاً:

المبحث الأول: الفلسفة البراجماتية في الميزان.

المبحث الثاني: موقف الإسلام من الفكر البراجماتي.

أما الخاتمة: فقد ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

هذا والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يحفظني من الزلل في القول والعمل، إنه سميع قريب مجيب.

وصل الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين

الفصل الأول

معالم الفلسفة البراجماتية

المبحـــث الأول
مفهــوم البراجماتيــة ونشــأتها

لقد جاءت الفلسفة البراجماتية معبرة عن روح العصر الذي وضعت فيه، فجعلت الحواس هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة، وأنه لا وجود لغير المادة، وإحلال العلم محل الدين في توجيه الإنسان بالنسبة لسلوكه الفردي، وأن العلم وحده كافٍ لجلب كل السعادة للبشر وحل مشاكلهم، وأنه لا فائدة من الدين، ولذا فلا حاجة للإنسان إلى الدين[1].

وقد أدت هجرة بعض الرواد إلى أمريكا إلى الدعوة لاحترام العمل اليدوي في كسب المعاش، واعتبار النجاح المادي الملموس دليلاً على صحة السبل المتبعة، وهذه الصفة هي جوهر فلسفتهم المسماة البراجماتية، ولذا يمكننا من خلال هذه الدعوة أن نطلق على جميع الأمريكان براجماتيين باعتبار أن البراجماتية تعبر عن الروح الأمريكية[2].

تعريف البراجماتية:

البراجماتية: مشتق من اللفظ اليوناني (pragma)، وتعني العمل، ويؤخذ منها كلمة "عملي"[3].

هذا وقد أجريت محاولات عديدة أن تضع تعريف عام للبراجماتية ولكن هذه المحاولات جميعها أكدت على أن الاختلافات التاريخية والثقافية بين البراجماتيين لا يمكن أن تتناسب أو أن توضع تحت تعريف عام، وهذا ما وضحه "بابيني" في الفقرة الافتتاحية لكتابه عن البراجماتية، في محاولة منه لتقديم هذا المذهب للفلاسفة الإيطاليين أشار فيه إلى أن البراجماتية لا يمكن تعريفها، فمن يستطيع تعريف البراجماتية في بضع كلمات يفعل ما هو ضد البراجماتية وهو الشيء الذي لا يمكن تخيله ضد هذه الفلسفة[4].

---

(1) انظر: الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه. د/ محمود عبد الحكيم عثمان، ص 485 - 486، الناشر الدار الإسلامية للطباعة والنشر. ط الثالثة 1985 م.
(2) انظر: جون ديوي، د / أحمد فؤاد الأهواني، ص 20، الناشر دار المعارف - القاهرة - ط. الثانية 1968 م.
(3) انظر: المعجم الوسيط: 2/ 94.
(4) انظر: النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية. إعداد الدكتور/ هاني محمد رشاد بخيت، ص 2، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة 1985م.

ويبدو أن هذا راجع إلى أن "بابيني" كان يرى في البراجماتية نظرة مفتوحة وليست ثابتة محددة، فهي تنظر إلى الواقع لا باعتباره محدد المعالم في قالب واحد ولكن باعتباره سيالاً ومتدفقاً - وأن الحقيقة لا يمكن أن توضع في إطار ثابت منتظم غير متغير.

لكن هل معنى ذلك أن البراجماتية لا يمكن تعريفها؟ الإجابة بلا: "فالبراجماتية يمكن القول: "إنها مذهب فلسفي اجتماعي يقول بأن الحقيقة توجد في جملة التجربة الإنسانية: لا في الفكر النظري البعيد عن الواقع. وأن المعرفة آلة أو وظيفة في خدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما: هو في كونها مفيدة للناس، وأن الفكر في طبيعته غائي"(1).

وقد عرفها صاحب المعجم الفلسفي بأنها "مذهب يري أن معيار صدق الآراء والأفكار إنما هو في قيمة عواقبها عملاً، وأن المعرفة أداة لخدمة مطالب الحياة، وأن صدق قضية ما كونها مفيدة، والبرجماتي بوجه عام: وصف لكل من يهدف إلي النجاح، أو إلي منفعة خاصة"(2)

أي أنها ترتكز علي حياة الإنسان وواقعه، وعلي المنفعة واللذة للإنسان وليس ما يأتي من خارج الإنسان.

العوامل التي ساعدت على ظهور الفلسفة البراجماتية:

إذا كانت الفلسفة البراجماتية إحدى الفلسفات التي أغفلت المناهج العقلية والنقلية، واعتمدت أساساً على مناهج الحس والتجربة المادية فما هي العوامل التي ساعدت على ظهورها؟.

لقد ظهرت الفلسفة البراجماتية نتيجة عدة عوامل هي:

1- ظهور نظرية التطور التي قال بها داروين، فقد كان لها أثر بالغ على الفلاسفة ومن بين هؤلاء فلاسفة الفلسفة البراجماتية، فقد قامت هذه الفلسفة على أساس قانون (البقاء للأصلح). وبذلك مهدت لفكرة ارتباط الحقيقة بالمنافع التي تؤدى في الحياة. فالإنسان يستخدم الصيغ العقلية لحفظ وجوده، ويستطيع أن يستبدل بها غيرها دون أن يفوته النجاح العملي. وقد بنى" جون ديوي " على هذه الفكرة "براجماتية الذرائع"(3).

---

(1) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. إشراف الدكتور/ مانع بن حماد الجهني 2 / 842، الناشر دار الندوة العالمية، ط : الثالثة 1418 هـ.
(2) انظر: المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص 32.
(3) تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم. ص 414، ط: دار المعارف 1996م.

2- تقدم العلوم السيكولوجية، فقد تطورت علوم النفس وذهبت إلى أن كل شيء في العقل يهدف إلى غاية معينة، وكان وليم جيمس أشهر مؤسسي البراجماتية من كبار علماء النفس وهو صاحب "قانون المنفعة" في علم النفس.

3- الحاجات الدينية: ففي فرنسا ظهر الجانب الديني من البراجماتية واضحاً في نظرية "ليروا" القائلة أن الاعتقاد في حدوث المعجزات يساعد على تحقيقها، وبالرغم من ذلك فقد كان معظم البراجماتيين ملحدين من أمثال: (جون ديوي) الذي جاهر بإلحاده وأصدر بيان الإنسانيين"[1].

4- الظروف الاجتماعية: لقد جاءت الفلسفة البراجماتية ثمرة للتفاعل بين الأفكار التي حملها المهاجرون الأوربيون إلى أمريكا وبين أفكار البيئة الجديدة التي نزحوا إليها، فقد اعتمد المهاجرون في حل مشاكلهم على العمل والكفاح، ولذا فقد ارتبط التفكير بالعمل، وأصبحت النظريات والمذاهب مجرد فروض للعمل تمتحن بما ينتج عنها من المواقف العملية، وهي قابلة للتغيير طبقاً لمقتضيات الواقع، وقد عرفت هذه الروح باسم البراجماتية، وهو اسم يطلق على الروح الأمريكية[2].

وأول من صاغ هذا المصطلح هو "تشارلز بيرس" في يناير عام 1878م، والذي يعد الأب الروحي للبراجماتية، ثم تناوله من بعده "وليم جيمس"، وفصله في نظام فلسفي حتى أصبحت البراجماتية تعرف باسمه ويعرف بها"[3].

فبدأت بـ تشارلز بيرس (1839- 1914م)، ثم وليم جيمس (1842- 1910م)، ثم جون ديوي (1859- 1952م).

---

(1) انظر: التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية، د/ سعد صالح بحث في كلية أصول الدين بالزقازيق - جامعة الأزهر ص 20 - العدد الثالث عام 1412 هـ - 1991م.

(2) انظر: جون ديوي. د/ أحمد فؤاد الأهواني، ص 82، دار المعارف سلسلة التوابع 1968م.

(3) انظر: البراجماتية ليعقوب فام، ص 131. الهيئة العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني. عام 1998 م.

المبحـــث الثـانـــي

المعرفة - الحقيقة - الأخلاق – الدين في الفكر البرجماتي

سأكتفي في هذه المسائل بتناولها عند ثلاثة من الفلاسفة البراجماتيين وهم ("بيرس"، و"جيمس"، و"ديوي") باعتبارهم أبرز الفلاسفة البراجماتيين.

وسأجعل الحديث عن المعرفة أولاً؛ لأن المعرفة عند "بيرس" عامة، وعند "جيمس" و"ديوي" ذاتية. وهي معرفة ظنية؛ لأنها أداة للعمل المنتج، ثم يأتي الحديث عن الحقيقة؛ لأنها لب النزعة البراجماتية وجوهرها، والحقائق عندهم ليست مطلقة بل هي نسبية، ثانياً: يأتي الحديث عن الأخلاق؛ لأنها إنسانية يصنعها الإنسان بكفاحه فهي مرتبطة بالحقيقة، ثالثاً: يأتي الحديث عن الدين في نهاية الحديث عن القضايا الثلاث؛ لأن الدين يشمل ذلك كله.

وسيتضح من خلال الحديث عن الدين عند هؤلاء الثلاثة أن "بيرس" يعترف بوجود إله فاعل مختار، أما الدين عند كل من: "جيمس"، و"ديوي" ليس ديناً سماوياً، بل هو عند "جيمس" دين شخصي تجريبي، والله شخصية متناهية رفيق للإنسان - والإيمان به مجرد إشباع لحاجة بشرية، أما الدين عند "ديوي" فهو دين طبيعي عبارة عن العلاقة القائمة بين أفراد المجتمع، وقد هاجم الدين على أساس أنه عائق للبحث العلمي، والتقدم.

أولاً: المعرفـة عنـد (" بيرس "، و" جيمس " و" ديوي ")[1].

إن الإنسان في البراجماتية مكون من عقل وجسم متصلين معاً ومتكاملين مكونين الشخصية الإنسانية، ولذا فإن وسيلة المعرفة عندهم هي العقل والحواس معاً، فالحواس تتلمس الأشياء والظواهر، والعقل يفكر في نتائج هذه الظواهر، أي أن الفرد يرى الموقف ويتحسسه عن طريق الحواس ثم يتفاعل مع هذا الموقف، وعن طريق هذا التفاعل تحدث المعرفة.

المعرفة عند " بيرس ":

إن بيرس ينكر المعرفة الحدسية التي تعتمد في صدقها على ذاتها وتصلح أساساً لغيرها، فقد اعترض بيرس على وجود معرفة قائمة على هذا النحو وقدم لنا هذا الاعتراض:

«ينكر بيرس أن لنا معرفة مباشرة بأنفسنا كأفراد مستقلة، أي أننا عاجزون عن الشعور شعوراً مباشراً بذواتنا وحالاتنا العقلية المختلفة. لا ينكر أننا نعرف هذه الوقائع عن أنفسنا، ولكنه ينكر أن معرفتنا لها حدسية»[2].

فإنكار "بيرس" للمعرفة الاستدلالية إشارة إلى أن القضايا الفطرية قضايا لا معنى لها وأن القضايا البسيطة التي يعتقد بصحتها رجل الشارع هي القضايا الصادقة. وتصلح هذه القصايا أن تكون أساساً للمعرفة الإنسانية. ولذلك وجدنا هذا الإنكار للحدس يمهد السبيل لتقرير أن العلم الصحيح ما كان مؤسساً على ما نعتقده، لأن الفكرة الصحيحة ليست الفكرة المجردة المتعالية على حياة الناس ووقائعهم وإنما هي الفكرة العامة التي يراها كل إنسان ويستطيع أن يحققها كل فرد. ثم على العلم أن يجد لها تحليلاً وتدعيماً عقلياً»[3].

---

(1) المعرفة: هي إدراك الأشياء وتصورها، وهي تطلق على معنيين أساسيين:
الأول: هو الفعل العقلي الذي يدرك الظواهر ذات الصفة الموضوعية.
الثاني: إطلاقها على نتيجة ذلك الفعل أي حصول صورة الشيء في الذهن.
ولنظرية المعرفة معنيان:
أحدهما: وهو المعنى الأعم ويراد به العلم الذي يبحث في مادة العلم الإنساني ومبادئه الصورية.
وثانيهما: وهو المعنى الأخص ويقصد به العلم الذي يبحث في المعرفة من حيث مبادئها المادية. انظر: المعجم الفلسفي د. جميل صليبا 394/2، وتمهيد للفلسفة د. محمود حمدي زقزوق، ص 116، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، ط: 1979م.

(2) انظر: البراجماتيزم عند وليم جيمس ص 67، رسالة ماجستير، إعداد الباحث / محمود زيدان، كلية الآداب - جامعة القاهرة - عام 1956م.

(3) انظر: نفس المصدر السابق ص 78.

وبهذا يرى "بيرس" أن أفكارنا شبيهة بالفروض العلمية التي نقيمها ويمكن تحقيقها فيرى « أن معنى الفكرة أو الفرض يكمن في السلوك الذي يتضمن ذلك المعنى، فالفرض الذي يمكن تحقيقه فرض صحيح، وعندما تقودنا أفكارنا إلى سلوك لا هو بالذي نؤخذ فيه على غرة، ولا هو بالذي نتلمسه فلا نجده؛ فعندئذٍ نرى أننا قد تغلبنا على الجانب الذاتي من المعرفة وهو جانب جوهري فيها، وأن أفكارنا التي نكونها في أذهاننا لتؤدي إلى أفعال تقدر الأشياء كما هي موجودة في ذاتها مستقلة عن الفكر.

ولكن لما كانت معرفة الباحث بشيء أو بموقف ما دائماً تكون ناقصة، فليس يكفي أن يستخدم القاعدة فرد واحد، ولذلك فإن بحوث الزملاء من الباحثين تصحح المعرفة المكتسبة في البحث الفردي وتكمل مواضع النقص فيها، كما أن جماعة البحث (وهذه تشتمل على الناس جميعاً بما فيهم الباحثون العلميون باعتبارهم الصفوة) تحصل من المعرفة أكثر مما يحصله الفرد الواحد، وتعمل للتغلب على الأخطاء التي تقع في التحقيق الفردي، وبهذه الطريقة تكون المعرفة عملاً جماعياً ويكون التصحيح مهمة تعاونية. ولكن حيث إن الجماعة القائمة في أية لحظة معينة قد تخطيء فيما يتعلق بموضوع ما، وهي على أية حال لن تعرف عنه كل شيء، فعلى كل باحث أن يتصور بحثه داخل نطاق البحث المستمر استمراراً لا ينتهي والذي تقوم به جماعة الباحثين الدائمة النمو.

ومن ثم فإن الجماعة تنشد الصدق باعتباره معياراً أقصى تضعه نصب الفكر، والباحثون عن الصدق يتجهون دائماً نحو مرتبة من المعرفة الكاملة ولكنهم لن يبلغوا تلك المرتبة أبداً، على أن ذلك لا يتنافى بصورة مطلقة مع وجود معرفة يقينية»[(1)].

ومما سبق يمكن القول:

إن المعرفة عند "بيرس" معرفة عامة، وأن البحث عنده قائم على التعاون الجماعي المستمر، وبذلك تكون غاية المعرفة عنده هي الوصول إلى المعرفة الكاملة، لكنه يرى أن ذلك لا يتم مع معرفته بوجود معرفة يقينية.

المعرفــة عنــد " جيمـس ":

رأينا فيما سبق المعرفة عند "بيرس"، فما هي المعرفة عند "جيمس"؟.

(1) الموسوعة الفلسفية المختصرة ترجمة فؤاد كامل وآخرين، مراجعة الدكتور/ زكي نجيب محمود، الناشر: دار القلم - بيروت - لبنان - ص 139 - 140.

"وليم جيمس" من الذين تحدثوا عن المعرفة فرأى: «أنه من المطلوب أن نعتقد التسليم بأن هناك حقيقة وأن عقولنا تستطيع أن تدركها. ومن هنا نرفض موقف الشاك الذي لا يعتقد بذلك ولكن الاعتقاد في وجود الصدق وفي إمكان أن تدركه العقول يتجه إلى طريقين: طريق المذهب المطلق الذي يرى أنه في إمكاننا إدراك الحقيقة والصدق، وطريق المذهب التجريبي الذي يرى أن هناك فرق بين المعرفة وبين إمكان المعرفة. والذي نستطيع الوصول إليه إنما هو إمكان معرفة الحقيقة دون معرفة أننا وصلنا إليها»[1].

ومن ثمَّ نرى أن و"ليم جيمس" يرى أن هناك يقيناً متمثلاً في وجود حقيقة، وفي إمكان العقل أن يصل إليها. إلا أن العقل لا يعرف أنه وصل إليها. بينما يرى القائلون بوجود الحقيقة المطلقة إمكان ذلك.

فنظرية "وليم جيمس" في المعرفة نظرية تجريبية، لأنه يعالج كل مشكلة معرفية علاجاً يقوم على التجربة الجزئية المحسوسة رافضاً كل تفسير عقلي، فيرى أنه بالرغم من أن غرائزنا تحتم علينا أن نكون من رجال المذهب المطلق. إلا أنه يجب علينا عندما نكون فلاسفة أن نعتبر هذه الحقيقة حالة ضعف في طبيعتنا يجب أن نعالج أنفسنا منها بقدر الإمكان، ولهذا يقول "وليم جيمس": « لذلك ارتضيت فيما يتعلق بنظرية المعرفة، المذهب التجريبي، وآمنت بنظرية عملية، وهي أنه يجب علينا أن نسير في تجاربنا ونمضي في تفكيرنا حول هذه التجارب؛ لأن أفكارنا وآراءنا لا تتطور وتتدرج نحو الكمال إلا بهذا السبيل، ولكن أن تصر على أن نظرية من تلك النظريات - أي نظرية كانت - حق لا يقبل الإبطال أو الشك، فذلك على ما أعتقد خطأ عظيم، فليس هناك من اليقين الذي لا يعتريه إلا حقيقة واحدة، وهي تلك الحقيقة التي لم تقدر فلسفة الشك نفسها أن تهدمها، ألا وهي وجود ظاهرة الشعور. وتلك هي النقطة الجرداء التي تبدأ منها المعرفة»[2].

(1) انظر: العقل والدين. تأليف وليم جيمس، ترجمة د/ محمود حسب الله - الناشر: دار الحداثة - بيروت - لبنان، ص 16 - 17.

(2) انظر: العقل والدين. تأليف وليم جيمس، ترجمة د/ محمود حسب الله - الناشر: دار الحداثة - بيروت - لبنان، ص 18، 19.

ويعتقد "وليم جيمس" أن معرفتنا لا تتكون دفعةً واحدةً وإنما تبدأ ناقصة وأننا نعمل على إتمام ما بها من نقص باستمرار. وما دامت التجربة مصدر ثقتنا فيجب ألا نهمل التجارب الجديدة والوقائع التي تمر علينا. وينبغي أن نقوم دائماً بعملية جرد في مخزننا القديم. إن التجارب الجديدة لا تتفق والمستودع القديم [1] من عقائد وآراء، بل قد تعارضه وقد نكتشف بتجربة جديدة أن بعض أجزاء المستودع معارض لبعض، ومن هنا يشعر الإنسان بالقلق وبالحاجة إلى الخروج منه ووسيلته إلى ذلك هو التوفيق بين القديم والجديد[2].

ولكي تكون المعرفة صادقة عند جيمس يلزم أن يوفق بين القديم والجديد فيرى أن أية محاولة للثورة المطلقة على القديم تؤدي إلى تثبيته، وينبغي الاحتفاظ بالقديم والسماح للواقعة الجديدة أن تنضمَّ للأفكار القديمة وأن لا يكون هذا الانضمام مجرد إضافة، بل أن تضاف الفكرة الجديدة إلى القديمة إضافة تركيبية، وترتبط بها ارتباطا شديدًا بحيث يتكون منها جميعًا وحدة جديدة متماسكة.

وينبهنا جيمس في عملية التوفيق هذه بأنه يكون التغيير في المعارف القديمة في أضيق الحدود، فيقول: « إنا نرمم ونصلح ونجلو الصدأ أكثر مما نهدم أو نجدد»[3].

ومما سبق يمكن القول إن المعرفة عند جيمس معرفة ذاتية فردية تجريبية وبالتالي فهي نسبية، وفي إمكان العقل أن يصل إلى اليقين إلا أنه لا يعرف أنه وصل إليه.

المعرفـة عنـد " جـون ديـوي ":

يقول "جون ديوي": إن المعرفة بمعناها الدقيق كشيء نمتلكه إنما تتكون من مواردنا الفكرية، أي من كل العادات التي تجعل فعلنا ذكياً. ولا يدخل في تكوينها إلا ما انتظم في استعداداتنا، بحيث يتيح لنا تكييف البيئة وفقاً لحاجتنا. وتكييف أهدافنا ورغباتنا وفقاً للموقف الذي نعيش فيه. فالمعرفة ليست مجرد شيء نعيشه الآن. بل تتكون من الاستعدادات التي نستخدمها عمداً أو عن وعي لفهم ما يحدث لنا الآن.

---

(1) المستودع القديم هو معارفنا القديمة. بهذا سماها وليم جيمس.

(2) وليم جيمس. تأليف محمود زيدان، الناشر: دار المعارف - القاهرة، عام 1958م، ص 60، 61.

(3) نفس المصدر السابق، ص 61.

والمعرفة من حيث هي فعل أو عمل هي إبراز بعض استعداداتنا إلى نطاق الوعي بقصد تبديد حيرة ما، عن طريق فهم الصلة بيننا وبين العالم الذي نعيش فيه [1].

وعلى هذا فإن المعرفة عند "ديوي" هي معرفة وسائل لحلول، وهذه الحلول لا تكون إلا لمشكلات قائمة فعلاً. أي أن الإنسان يعترضه عوائق أو عقبات في حياته، ثم تأتي المعرفة فتزيل هذه العقبات.

وبذلك تكون المعرفة عند "ديوي" أداتيه، نتخذها لتنظيم الأشياء تنظيماً جديداً حسب ما نريد، وليست الحقائق ثابتة موجودة وجوداً سابقاً، ولكننا نكسب المعرفة كلما تدرجنا في البحث وسرنا في طريقه[2]. هذه المعرفة ليست أولية ولا سابقة على التجربة، بل إنها نابعة من التجربة نفسها وهي ثمرة لها. هذه المعرفة هي المنهج التجريبي ذاته، تجري معه وتتطور كلما تطور.

فـ "ديوي" يرى أن المعرفة النابعة عن التفكير في صميمها معرفة تجريبية بالمعنى الطبيعي الذي تحمله كلمة تجريبي، وإذا لم نحاول تحقيق أفكارنا ونختبرها فلن تتحول إلى معرفة. والواقع ان المعرفة عند "ديوي" لا وجود لها إلا إذا أفضى التفكير إلى فعل تجريبي يحقق ما ذهب إليه. والمعرفة يجب أم تكون موضوعية ولا يتم ذلك إلا إذا تحققت في الواقع التجريبي.

فالمعرفة في رأي "ديوي": « نشاط يستشار حين يظهر موقف من المواقف المتأزمة. فمثل هذا الموقف - صغيراً كان أم كبيراً - يجبر الإنسان على أن يعلل ويأخذ في الحسبان المادة الخام التي يحتويها الموقف والمادة المحسوسة الموجودة بالفعل، وأن يحضر من أجل المزيد من المعرفة»[3].

ومما سبق يمكن القول: أن المعرفة عند "ديوي": أداتية تجريبية تظهر في الإنسان عندما تقابله عقبات أو تصادفه عوائق، وتقوم في جهده لتذليل العقبات والعوائق وبهذا تكون المعرفة عند "ديوي" في خدمة مطالب الحياة. وبعد أن تحدثت عن المعرفة عند: "بيرس" و"جيمس" و"ديوي " يمكن القول في إيجاز:

(1) الديموقراطية والتربية. تأليف / جون ديوي، ترجمة د. نظمي لوفا، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، عام 1978م، ص 305.
(2) البحث عن اليقين: تأليف. جون ديوي - ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، ص 17، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عام 1960م.
(3) النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية، ص 49، 50.

إن المعرفة عندهم جميعاً أداة للعمل المنتج، فانصرف التفكير عندهم عن المبادئ والأوليات إلى النتائج والغايات. ولهذا اتفقوا جميعاً في رد المعرفة على ما يترتب عليها من نتائج علمية. إلا أن "بيرس" يختلف عن "جيمس" و"ديوي" في جعله المعرفة عامة يمكن لأي إنسان أن يشاهد نتائجها العملية. بينما عند "جيمس" و"ديوي" ذاتية فردية أقرب إلى أن تكون نسبية تعتمد على ما يدركه الشخص الواحد من نتائج.

وإذا كانت المعرفة عندهم جميعاً أداة للعمل المنتج، ويردون المعرفة إلى ما يترتب عليها من نتائج عملية، فهي معرفة ظنية - مع أن "بيرس" و"جيمس" يعترفان بوجود معرفة يقينية، إلا أن العقل لا يستطيع الوصول إليها - وذلك لأن البراجماتية لا تعترف بطريق للمعرفة غير طريق الخبرة والتجربة. ولأن الفلسفة البراجماتية تؤكد على التغير الدائم في الكون، نتيجة للتفاعل المستمر بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، فضلاً عن التفاعل بين قوى الطبيعة نفسها»[1].

وعلى هذا فالمعرفة عند البراجماتيين نتيجة من نتائج النشاط، ووظيفتها توجيه هذا النشاط توجيهاً يساعده على تحقيق غايته. وبذلك تكون المعرفة عند البراجماتيين - كما يقول الدكتور/ زكي نجيب محمود: «ليست نسخة من أصل هو الحقيقة الخارجية، بل هي بيان لما يمكن أن يكون عليه سلوكنا في حياتنا العملية بحيث نحقق رضى النفس لأكثر عدد ممكن من الناس»[2].

الحقيقة عند " بيرس" و" جيمس " و" ديوي " [3]:

سنرى أن الحقيقة عند البراجماتيين ليست خالدة ولا ثابتة وليست بالشيء الذي ينبغي علينا تأمله، ولكنها شيء محسوس جزئي وموجود في عالمنا الأرضي، وأنها في تغير وتطور حسب إفادتنا منها. فالحقيقة عندهم ذاتية مردها إلى الفرد والمنفعة.

وعلى هذا نجد أن "بيرس" يذهب إلى أن الحقيقة هي ما يتفق عليه كل الباحثين ويمكن اكتشافها باستخدام وسائل العلم، وتأتي فيما بعد التحقق.

---

(1) انظر: التربية عن طريق النشاط. تأليف إسماعيل القباني، الناشر لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية عام 1984 م، ص 181.

(2) انظر: نظرية المعرفة. تأليف د. زكي نجيب محمود، مطابع وزارة الإرشاد القومي - القاهرة، عام 1956 م، ص 37.

(3) الحقيقة عند البراجماتيين تختلف عن الحقيقة عند الفلاسفة والماركسيين و الوجوديين، فالحقيقة عند البراجماتيين: «هي الفكرة الناجحة أو النافعة أو الفرضية العملية التي تحققها التجربة». انظر المعجم الفلسفي د. جميل صليبا (2 / 485 – 487).

ويذهب "جيمس" و"ديوي" إلى أن الحقيقة شيء يصنع مثل الصحة والثروة والقوة والجاه.. يصنعها الإنسان بكفاحه ونضاله ليستفيد من الوجود، كما تخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم القوى الطبيعية. وقد ربط "ديوي" الحقيقة بالبحث، فما يؤدي إلى حل للمشكلة يكون هو الحقيقي. وعلى هذا نجد أن البراجماتيين يريدون خلق الحقيقة والحقيقي حسب حاجات المجتمع. وسأعرض للحقيقة عند كل من: "بيرس" و"جيمس" و"ديوي " بشيءٍ من الإيجاز:

أولاً : الحقيقة عند " بيرس ":

فالحقيقة عند "بيرس" هي الحقيقة التي يمكن اكتشافها باستخدام وسائل العلم، وأن أهم شيء يمكن أن توصف به هذه الحقيقة؛ أنها شيء عام مصيري. ليس لها صبغة فردية ولكنها عامة تصدق على جميع الأفراد، فهي بعيدة ومستقلة عن أي فرد وعن أي عدد من الناس، وأن هذه الحقيقة تضع في مكان إلى ما بعد وليس إلى ما قبل، فليست الحقيقة ثابتة لابد من العودة إليها، ولكنها تأتي فيما بعد التحقيق. بمعنى أنها نهاية عملية طويلة من التحقيق. وبهذا يمكن القول: أن "بيرس" لم يضع نظرية محددة في الحقيقة.

هذه هي الحقيقة عند "بيرس" فما هي الحقيقة عند "جيمس"؟.

ثانياً: الحقيقة عند " جيمس ":

نظرية الحقيقة عند "جيمس" تمثل لب النزعة البراجماتية وجوهرها وتمثل عنده القلب من الجسد، ومعنى الحقيقة عند "جيمس": هي العلاقة التي تحصل بين فكر أو رأي أو عقيدة وبين موضوعها وتعني الاتفاق مع الواقع فيقول: «الحقيقة صفة أو خاصية لبعض أفكارنا، فهي تعني اتفاقها مع الواقع تماماً مثلما يعني الباطل اختلافها معه»[1].

ومعنى هذا أن الحق عند "جيمس" هو اتفاق الفكر مع الواقع الذي تتفق معه الفكرة أو تختلف.

فليس الحق صفة راكدة لاصقة للعبارة التي نضعها بهذا الوصف، بل هو قابلية العبارة لأن تكون أداة للسلوك والعمل، فإن كان فيها ما يهدينا إلى العمل الناجح فهي حق وإلا فهي باطل، وكما يقول "جيمس": «إن امتلاك أفكار صحيحة تعني في كل مكان امتلاك أدوات للعمل والأداء تقدر بثمن»[2].

ومعنى هذا أن الحقيقة عند "جيمس" تنظر دائماً إلى الأمام. وهو بهذا المعنى يتفق مع "بيرس" في أن الحقيقة ليست سابقة على الفعل لكنها تأتي بعد الفعل لاحقة عليه - فهي حدس يطرأ على التجربة - ولذا فالحق أو الصدق لا يكون قبل النزول إلى معترك الحياة والعمل بل هو يطرأ عليها عندئذٍ فتصبح حقاً أو صدقاً حين نلمس أثرها الناجح في ميدان السلوك، بمعنى أن الأحداث العملية وحدها هي التي تجعلها صادقة أو باطلة.

---

(1) البراجماتية. تأليف وليم حيمس، ص 351.
(2) النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية، ص 38.

فالصدق يحدث للفكرة، وهذا الصدق ذاته يتولد من الأحداث؛ لأن صحة الفكرة مرهونة بحادثة أو عمل يقول "وليم جيمس": «إن الأفكار الصحيحة هي تلك الأفكار التي نستطيع هضمها وتمثيلها ودمغها بالمشروعية وتعزيزها وتوثيقها وإقامة الدليل عليها. والأفكار الخاطئة هي تلك الأفكار التي لا نستطيع ذلك معها. هذا هو الفرق العملي الذي يحدث لنا إذا كانت لدينا أفكار صحيحة. ومن ثم فهذا هو معنى الحقيقة، لأن ذلك هو كل ما نعرفه عن الحقيقة»[1].

---

(1) البراجماتية. وليام جيمس. ص 351.

ومما سبق يمكن القول:

أن الحقيقة عند "جيمس" ذاتية، ليست هدفاً أو غاية، وهي لا تتعدى أن تكون طريقاً لإشباع حاجات أخرى أشد حيوية، فهي خطة للعمل أو مشروع له يترتب عليه أن تكون لها نتائج مثمرة، وذلك لأن الحقيقة عند "جيمس" شيء يصنع مثل الصحة والقوة، أو على حد قول "برجسون" في مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب "البراجماتزم": «الحقيقة اختراع شيء جديد لا اكتشاف شيء سبق وجوده. وليس يعني هذا أنها تحكم وتعسف، بل يعني أنه كما أن الاختراع الصناعي إنما يتقدم بفضل فائدته العملية فقط، كذلك القضية الصادقة هي التي تزيد سلطاننا على الأشياء. ونحن نخترع الحقائق لنستفيد من الوجود، كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم القوى الطبيعية»(1).

ثالثاً: الحقيقة عند " ديوي ":

الحقيقة عند "ديوي" كما هي عند "جيمس" هي علاقة تمثل تطابق الفكر مع الواقع. لكن التطابق ليس مجرد غموض وغير محلول لكنه تطابق بمعناه المعروف الشائع. فإن الموقف المليء بالاتجاهات المتصارعة والمشكوك فيها يفجر التفكير باعتباره وسيلة التحكم فيها، وهذا الموقف ينتج عنه نتائجه المتوافقة وتخرج منه ثماره الخاصة(2).

---

(1) تاريخ الفلسفة الحديثة - تأليف يوسف كرم، الناشر دار المعارف - القاهرة - مصر، الطبعة الخامسة عام 1956 م، ص 418.

(2) انظر: النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية، ص 50.

فـ "ديوي" سار على نفس الخط الذي سار عليه السابقون من رواد البراجماتية، مثل: "بيرس" و"جيمس" فإذا كانت الحقيقة هي أن أي فكرة تكون صادقة إذا ما اتفقت مع الواقع فإن "ديوي" يرى: « أن الموقف المشكل هو المضمون الذي فيه كل شيء يقال عن المعرفة والحقيقة. أي مرجع يمكن العودة إليه ويمكن به فهم ذلك المفهوم»[1]. والفكرة لا توصف بأنها حق إلا إذا كانت دليلاً هادياً يسدد خطى صاحبها في مرحلة السلوك أي مرحلة التنفيذ، فصوابها هو في هدايتها لصاحبها وليس صوابها لاصقة بها بغض النظر عن أثرها في مجرى السلوك والعمل. يقول "ديوي": «الحق هو ما يهدينا هداية موفقة - والقدرة المحققة في مثل هذه الهداية الموفقة هي على وجه الدقة ما نعنيه بكلمة الحق»[2]. فالعلاقة بين الأفكار والحقيقة هي علاقة واحد بواحد كما يقول "ديوي": « وكلما كانت الفكرة متطابقة بشكل أقرب كلما كانت صادقة. فالفكرة الناجحة هي التي ستؤدي إلى النجاح أو تحقيق الغرض.

وبصفة عامة فإن الفكرة الصادقة في أي موقف تكون في اتفاقها مع الواقع، ويؤكد "ديوي" أنه يتفق مع "جيمس" في هذه المقولة فهو يعيد ما قال به "جيمس" من قبل: من أن الحقيقة هي اتفاق الفكر مع الواقع»[3].

---

(1) انظر: النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية، ص 51.
(2) حياة الفكر في العالم الجديد تأليف د. زكي نجيب محمود، الناشر مطابع الشروق - بيروت - لبنان، ط الثانية 1402 هـ - 1982 م، ص 171.
(3) انظر: النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية، ص 53.

ويمكن أن نوجز القول فيما يأتي:

إن الحقائق عند البراجماتيين ليست مطلقة بل هي نسبية متغيرة، وذلك لأن الحقيقة عند "بيرس" هي ما يتفق عليه كل الباحثين ويمكن اكتشافها باستخدام وسائل العلم، وعند "جيمس" و"ديوي" هي شيء يصنع مثل الصحة والثروة.... يصنعها الإنسان بكفاحه ونضاله ليستفيد من الوجود، وقد ربطها "ديوي" بالبحث، مما يؤدي إلى حل للمشكلة - فكرياً أو عملياً - فهو حقيقي،

والحق عند الفكر البراجماتي ليس في صورة لشيء قد كان، أو لشيء كائن، إنما هو شيء سيكون نصنعه نحن.

الأخلاق عند " بيرس " و" جيمس " و" ديوي ":

بعد أن تحدثت فيما سبق عن: [المعرفة – والحقيقة] عند أقطاب البراجماتية "بيرس - جيمس - ديوي" أنتقل إلى الحديث عن الأخلاق عندهم.

وقبل الحديث عن الأخلاق عند "بيرس" لابد من التأكيد على أن رواد الفلسفة البراجماتية رفضوا التسليم بفكرة القيم الثابتة. فليس هناك حق في ذاته. لأن الإنسان هو الخالق الوحيد للقيم.

أولاً: الأخلاق عند " بيرس ":

هل تحدث "بيرس" عن الأخلاق وهو الفيلسوف والعالم الرياضي، خاصةً وأنه كان منطقياً وكان منهجه هو البحث العلمي؟.

نعم تحدث عن الأخلاق لكن بصورة عرضية لا بصورة ذاتية. ولم يكن مقصده الأساسي أن يجعل المنهج في خدمة مصالح جزئية للناس ولكنه أراد أن يبني نسقاً فلسفياً كامل البناء، ولهذا السبب لا نجد لكلامه في مجال الأخلاق قوة ولا أصالة.

وأهم نظرية قال بها "بيرس" في الأخلاق في ما سماها بالمجتمع الذي لا تحده حدود فقال: "إن رغبات الناس ومصالحهم لا تحدها حدود فيجب ألا تنتهي بانتهاء حياتنا بل يجب أن تعم المجتمع كله. وليس الخير هو الخير الوقتي الذي يقتصر على تحقيق مطلب شخصي، وإنما الخير هو الذي يدوم ويتصل في الأجيال المقبلة»[1].

---

(1) البراجماتزم عند وليم جيمس، ص 81.

ومن هذا نجد أن "بيرس" يرى ألا تفعل الخير الجزئي الذي يرضيه، ولكن يجب أن تفعل الخير الذي تتصور أن نتائجه تسعد كل الناس. ولكن لا نفهم هذا التصور من "بيرس" إلا بفهم معنى التضحية يقول "بيرس": «إن الذي لا يضحي بروحه يبدوا لي أنه غير منطقي في كل استدلالاته»[1].

ولقد اختار "بيرس" مذهب "الغيرية" [2] ويقرر أنه المذهب الصحيح. فإذا قلت له لما أقررت مذهب الغيرية ؟ قال: «إنه لا يوجد برهان عقلي على ذلك. ولكني أرى أن العالم سيكون أسعد حالاً لو أنكر المصالح الوقتية وأقام السلوك الذي يتصور أن تكون نتائجه محققة لسعادة الكل»[3].

وإذا كان "بيرس" يرى أن رغبات الناس ومصالحهم يجب أن تعم المجتمع كله، وأن الخير هو الذي تكون نتائجه محققة لسعادة الكل. فإن هذا المفهوم الأخلاقي مرتبط بمفهوم الحقيقة عنده، وذلك لأن الحقيقة عنده هي ما يتفق عليه كل الباحثين، فهي شيء عام، وليس صبغة فردية، ولكنها عامة تصدق على جميع الأفراد، وإذا كان هذا هو رأي "بيرس" في الأخلاق، فما هو رأي "جيمس"؟.

ثانياً: الأخلاق عند " جيمس ":

إن الأخلاق عند "جيمس" تتكون في عناصر ثلاثة: [الإلزام الخلقي - مذهب التفاؤل الخلقي - وحرية الإرادة الإنسانية] وهذه العناصر الثلاثة تكوّن رأيه في الأخلاق.

فالأخلاق عند "جيمس" هي أخلاق كفاح ونضال، وطبيعة الحياة عمل متصل وكفاح مستمر، وتجدد لا ينقطع وتطور لا يحده حد. وعلى ذلك فلا يمكن أن تكون هناك أخلاق مكتملة كما لا يمكن أن تكتمل الأخلاق إلا حين تنتهي آخر تجربة لآخر إنسان. وبهذا يتضح لنا رأي "جيمس" في الأخلاق والذي يتمثل في أن الأحكام الأخلاقية تجريبية تتطور وتتغير طبقاً لتغير الرأي العام الذي يعد في نظر "جيمس" -معيار الصواب بالنسبة للأحكام والقواعد الأخلاقية - فلا توجد أحكام أخلاقية مطلقة بحال من الأحوال»[4].

---

(1) المرجع السابق، ص 81.

(2) الغيرية: مشتق من الغير وهو كون كل الشيئين خلاف للآخر، وقيل أن كون الشيئين بحيث يتصور وجود أحدهما مع عدم الآخر. (انظر المعجم الفلسفي جميل صليبا [2 / 130 – 131]).

(3) البراجماتزم عند وليم جيمس 81.

(4) انظر: الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه د. محمود عبد الحكيم عثمان، الناشر:

ووقف "جيمس" موقفاً وسطاً بين التفاؤل والتشاؤم، لأن العالم عنده ليس خيراً في ذاته وليس شراً في ذاته، وإنما يمكننا أن نجعله خيراً بمكافحتنا الشر الذي فيه. واعتبر الإنسان مختاراً في أفعاله وليس مجبراً عليها.

ثالثاً: الأخلاق عند " ديوي ":

اعتبر "ديوي" المشكلة الخلقية أهم مباحث الفلسفة لأنها أكبر المشاكل العملية ارتباطاً بحياة الإنسان العادية؛ ولأنها تنبع من صميم الحياة التي يعيشها الإنسان، واحتلت هذه المشكلة مكان القمة في بحوث "ديوي" ودراساته الفلسفية.

وقد اعتمد "ديوي" في شرحه لنظريته الأخلاقية على نقاط ثلاث:

1- الأخلاق إنسانية تنبع من صميم الحياة التي نعيشها على ظهر الأرض، وليست أخلاقاً متعالية تفرض على الإنسان فرضاً.

2- الأخلاق اجتماعية لا تحصر السيرة الفاضلة داخل الفرد بينه وبين نفسه، ولا تنبع من الذات، أو النفس أو الضمير أو العقل.

3- الأخلاق يمكن بحثها علمياً كما تبحث سائر العلوم الطبيعية، ويمكن ضبطها وتوجيهها كما تضبط العلوم»[1].

فالقيم عند "ديوي" تنشأ نتيجة لظروف الإنسان فهي تنبعث من محيطه وليست منزلة عليه من سلطة عليا، وعلى هذا الأساس فهي ليست قيم ثابتة على مر الزمن، بل هي متغيرة مع المواقف والظروف وذلك لأنها أدوات يستخدمها الإنسان في سلوكه»[2].

وهكذا أنكر "ديوي" وجود مبادئ ثابتة في الأخلاق، ونزع إلى الإصلاح الذي يغير من كل شيء حتى يجعله ملائماً لظروف الحياة متمشياً مع روح العصر الصناعي الجديد. فالأخلاق ومثلها تنشأ نتيجة المواقف التي يقفها الفرد إزاء المشاكل التي تعترضه، والفرد في هذا النشاط يستهدف المستقبل، فيهتم بنتائج مواقفه التي تغير أوضاع الأشياء، وتساعد على حل المشكلات التي تعترضه.

الدار الإسلامية للطباعة والنشر - القاهرة ، ط. الثالثة 1985 م، ص 385.

(1) جون ديوي لأحمد فؤاد الأهواني، الناشر: دار المعارف بمصر - ط. الثانية 1968 م، سلسلة نوابغ الفكر الغربي، ص 125 - 126.

(2) حياة الفكر في العالم الجديد تأليف زكي مجيب محمود، الناشر دار الشروق، ط. الثالثة 1987 م، ص 167.

وخلاصة القول: أن نظرة البراجماتية إلى الأخلاق، إنما هي نظرة مادية، فهي ترى أن الأخلاق من خلق الإنسان وحده، نشأت بطريقة تجريبية بحتة، وليست خاضعة في نشأتها لأي قوة عليا. وهي متطورة لا ثبات لها فتتغير كلما تغيرت الحياة تبعاً للظروف والمواقف وحسب المنفعة والمصلحة.

ومن هنا فالأخلاق ليست ثابتة ولا يقين لها على الإطلاق، ويجب أن تكون موافقة للرأي العام.

الدين عند " بيرس " و" جيمس " و" ديوي " [1].

عند الحديث عن البراجماتية سنجد أن مفهوم الدين في البراجماتية يختلف عن مفهوم الدين الذي جاءت به الرسالات السماوية، فالبراجماتية تتحدث عن الدين لا على أساس أنه حق يجب الإيمان به بل على أساس أنه جانب من جوانب النفس الإنسانية يمثل أحد رغباتها الهامة التي يجب أن تشبع عن طريق الاعتقاد.

أولاً: الدين عند " بيرس ":

لقد تحدث "بيرس" عن الدين لكن بصورة عرضية وذلك لأنه كان منطقياً وغرضه البحث العلمي. فإذا سألنا "بيرس" هل الله موجود؟ يجيب: بالإيجاب بل إنه الشيء الضروري والخالق الحقيقي. ثم يصف الله بالعلم والقدرة والإرادة..... ولكنه يردف ذلك قائلاً بقوله: إن هذا كله ثرثرة لا معنى لها. الحق أن الدين ينبع من القلب لا من الرؤى. انظر إلى السماء ونجومها وتأمل حركتها فلابد أنك قائل بوجوب علة كاملة لهذا الكون العظيم»[2].

وعلى هذا الأساس فإن "بيرس" يرى لهذا الكون مبدعاً ومنظماً، لأن في الكون نظاماً، وأن هذا النظام يدخل فيه الإمكان، ومعنى هذا أن العالم لا يكتفي بنفسه ولا يقوم وحده، بل يحتاج إلى موجد يوجده وإلى منظم مبدع يوجد قوانين تنظيمه.

وقد انتهي "بيرس" إلى القول بوجود إله غير محدود العلم والقدرة وهو فوق كل نظام ذهني فلا شيء يقاوم وجوده.

ثانياً: الدين عند " جيمس ":

---

(1) **الدين في اللغة:** العادة، والحال، والسيرة، والسياسة، والرأي، والحكم، والطاعة، والجزاء، ومنه "مالك يوم الدين"، "وكما تدين تدان".
ولفظ الدين في الفلسفة الحديثة يطلق على عدة معانٍ منها: الدين الطبيعي: اصطلاح أطلق في الفرن الثامن عشر على الاعتقاد بوجود الله وخيريته، وبروحانية النفس وخلودها، وإلزامية فعل الخير من جهة ما هو ناشئ عن وجود الضمير ونور العقل. والفرق بين هذا الدين الطبيعي والدين الوضعي أن الأول قائم على وحي الضمير والعقل، على حين أن الثاني قائم على وحي إلهي يقبله الإنسان من الأنبياء والرسل (انظر: المعجم الفلسفي د / جميل صليبا [1 / 572 – 573]).

(2) البراجماتزم عند وليم جيمس، ص 81.

إن الدين عند "جيمس" ليس ديناً سماوياً ولكنه دين شخصي بسيط. وهو بهذا يخالف المعنى المألوف للدين، لأن التصور المألوف للدين هو الاعتقاد بدين سماوي وتصديق ما جاء في كتابه المنزل، وكل ما يحويه هذا الكتاب من أفكار وعقائد دون شك أو طلب البرهنة العقلية على صحتها، ومتابعة هذا الاعتقاد بسلسلة مفروضة من العبادات والأوامر.

لقد حصر "جيمس" اهتمامه في الديانة الشخصية وحددها بأنها اعتقاد الفرد بعالم أوسع خفي له أثره الفعال عليه في حياته الراهنة، وإذا كان الدين عنده أمر شخصي في جوهره، لهذا اعتبر الدين تجربة، وهو يساعده على حل مشكلاته حلاً صحيحاً، فيشعر بالسلام والراحة والطمأنينة، ويقوده إلى الموجود الأعظم، يقول "جيمس": «وأما في حياتنا اليومية فلكل منا أن يعتبر عقيدته ومذهبه وفكرته صحيحة بالنسبة إليه، إذا ما مكنته من حل مشكلاته اليومية حلاً شريفاً»[1].

هكذا نرى أن الدين عند "جيمس" مجرد تجربة، واعتبر أن الله شخصية متناهية، محدود بالزمان والمكان، وإذا كان هذا شأن الله عند "جيمس" فهو لا يحيط بكل شيء، وقدرته محدودة، ليس هو الفاعل القادر، وهو ليس إلا واحداً بين معاونين كثيرين. ووجود الله عند "جيمس" لا يقوم على أدلة عقلية أو معرفة موضوعية، بل هو وليد اعتقاد ديني قائم على التجربة الدينية بكل ما فيها من شعور وعاطفة ووجدان.

ويرى "جيمس" بأنه لا يجوز الحجر على النفس الإنسانية أن تعتقد بما تشاء. بل من الأحوط لها أن تعتقد ولا تقف على الحياد حتى تأتيها الأدلة على صحة الاعتقاد[2]، فيقول في ذلك: « أليس القول بوجوب الحياد، في حين أن ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الاعتقاد قولاً في غاية، أو ليس القول بأنه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين أغراضنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة في العالم الخفي - مجرد يقين خاطئ لا دليل عليه- ؟»[3].

«فمن الذي يحق له أن يمنعنا من أن نثق في ميولنا ومطالبنا الدينية ونصدقها؟»[4].

---

(1) أعلام الفلاسفة: تأليف د / هنري توماس. ترجمة متري أمين، الناشر: دار النهضة العربية - القاهرة عام 1964 م ، ص 378.
(2) انظر: الفكر المادي الحديث د / محمود عثمان، ص 387 - 388.
(3) انظر: إرادة الاعتقاد. وليم جيمس، ص 131. ترجمة د / محمود حب الله، الناشر دار أحياء الكتب العربية، عام 1946م.
(4) انظر: نفس المصدر السابق، ص 132.

هكذا يجعل "جيمس" مهمته في الإقناع بأن القول بوجوب الامتناع عن الاعتقاد خطأ لا يجوز التمسك به لأن مبررات من يقول بذلك لا تقوى على الصمود.

فالدين في رأي "جيمس" ليس حقاً واجب الاعتقاد، بل هو تجربة مفيدة في إشباع رغبة نفسية، هي الاعتقاد.

والتجربة الدينية صادقة بقدر ما تفيد. وبقدر ما تعطي للإنسان من نفع. شأنها في ذلك شأن دوران الأرض المفيد في قصور الظواهر، والتجربة الدينية تمتاز بخصائص التجربة الوجدانية. إلى حد ما فإنها تقوم على حدس أصيل، وأن لها آثاراً نافعة.

على أن الشك يظل يملكنا، إذ التجربة الدينية تجربة شاذة فريدة، غير قابلة للتحقيق بملاحظة نزيهة، ولكنها قبلت في البراجماتية، لاتصالها بالشعور والوجدان، وإنتاجها آثاراً نافعة، شأنها في ذلك شأن المخترعات النافعة والوسائل المفيدة، التي لا تستند على تجربة حاضرة، كالمعاني المجردة، والقضايا المنطقية والرياضية والطبيعية.

أما أن الدين حق في ذاته، ونظام إلهي لا تستقيم بدونه الحياة، فهذا مالا تدنو منه البراجماتية، بل إن الدين يظل تجربة وجدانية، تعطي ثمرات جد نفيسة في حياة الأفراد والجماعات، وذلكم هو مبعث الخصوبة فيها، وفيه [1].

أما عن موقفه من الأديان السماوية وأهميتها: فإنه يعتقد أن إيمان الناس في العصر الحديث بالأديان السماوية بدأ يزول تدريجياً - إن لم يكن قد زال نهائياً - وذلك لأسباب كثيرة منها:

1- أن الأديان تقوم على التخويف والتهديد والعقاب والرهبة.
2- فرض العبادات واعتقاد بأنها أساسية وهي تميز الإيمان من الكفر، مع أنها ظواهر سطحية في نظر الكثيرين اليوم.
3- نهضة العلم والنقد الفلسفي، لقد أظهر العلم أن الإنسان واضع للقوانين ولم يتلقها من الله، وأن القوانين خاضعة للتغيير والتعديل وليست خالدة. ولقد أبان دارون وغيره: أن فكرة العناية الإلهية والتدبير خرافة، وأن النظام الغائي غير موجود. إذ أن فكرة النظام تفسير إنساني مصطلح لا وجود له في الكون ذاته. كل ذلك قلل من سلطة الله في العالم والعباد[2].

---

(1) انظر: نظرات في الفلسفة الحديثة د / أحمد عبده حموده الجمل، ص 294، دار الطباعة المحمدية، ط: الأولى 1411 هـ - 1991 م.
(2) انظر: الفكر المادي الحديث. د / محمود عثمان هامش ص 389 - 390.

ومما سبق يمكن القول:

إن الدين عند "جيمس" ليس ديناً سماوياً ولكنه دين شخصي وهو دين تجريبي والله شخصية حقيقة متناهية محدود بالزمان والمكان.

ثالثاً: الدين عند " ديوي ":

أما "ديوي" فقد كان أكثر إلحاداً وأشد تطرفاً من غيره فقد نظر إلى الدين على أنه تجريبي تماماً، فالدين عنده دين إنساني، دين طبيعي، ليس ديناً إلهياً.

فهو يرى: أن كل دين "هو تعبير عن عادات، ومواقف عقلية، لأي شعب وشعائره وعباداته والتي تتبلور جميعها في الاعتراف بالألوهية وبقداستها، وبما يعنيه ذلك من مغزى في صدور العلاقات التي تزخر بها هذه الحياة[1].

وعلى هذا فالدين الذي يدعو إليه "ديوي" دين طبيعي، دين الإنسانية. ويرى أن الدين الحق هو الذي يرتكز أساساً على المثل، بدلاً من تلك الطقوس التي تفرض علينا قسراً، لأن المثل تتجه بنا إلى أفضل ما يمكن أن نحاول بلوغه من الإيمان[2]، وإذا كان " ديوي " قائم على المثل، فإن " ديوي " يرى أن المثل الأعلى للمجتمع هو أن يتعاون الناس معاً، وبعد قيام التعاون بين أفراد المجتمع فالإنسان "حر" في مجتمع ديمقراطي يتعاون أفراده على قدم المساواة. وهذا التعاون هو الدين في جوهره. فالإيمان الحق إنما هو إيمان بالكشف عن الحقيقة التي تحل ما يعترض الإنسان من صعاب، والإيمان الحق إيمان بمنهج يساير التفكير ويساير الحياة العملية مسايرة تعمل على ازدهار تلك الحياة ورخائها. والله هو العلاقة بين الإنسان ومثله العليا، يحاول تغيير أوضاع الحياة على مقتضاها[3].

والدين عند "ديوي" ليس له مثل عليا خاصة به ولا منهج للتفكير خاص به، وإنما هو روح تسري فيه مواقف الإنسان كلها إزاء خبرته.

---

(1) انظر: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام. تأليف هربرت شنيدر. ترجمة د/ محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط: 1964 م، ص 351.

(2) انظر: تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام. تأليف هربرت شنيدر. ترجمة د/ محمد فتحي الشنيطي، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط: 1964 م، ص 355.

(3) انظر: حياة الفكر في العالم الجديد د / زكي نجيب محمود، ص 176 - 177.

ومما تقدم يمكن القول بأن الدين عند "ديوي" إنساني وهو تجريبي ككل القيم نشأ تجريبياً ويتطور بواسطة الإنسان. وليس له وجود محقق على سبيل اليقين. ويؤيد هذا بيان الإنسانيين الذي صدر في أمريكا سنة 1933م ووقع عليه "ديوي" وغيره[1].

(1) انظر: وليم جيمس. محمود زيدان ص 204 - 205، دار المعارف 1985م.

ويتضمن البيان عدة نقاط منها:

1- الكون موجود بذاته وليس مخلوقاً.
2- الإنسان جزء من الطبيعة، وهو نتيجة عمليات مستمرة فيه.
3- لا ثنائية بين العقل والبدن، وأن النظرة العضوية إلى الحياة نظرة صادقة.
4- ثقافة الإنسان الدينية ليست إلا نتاج التطور التدريجي الناشئ من التفاعل بين الإنسان والبيئة الطبيعية، والوراثة الاجتماعية.
5- لا تقبل طبيعة الكون أي ضامن فائق على الطبيعة للقيم الإنسانية.
6- لقد ولى الزمن الذي كان يعتقد الناس فيه بالدين وبالله.
7- يتركب الدين من الأفعال والتجارب والأهداف التي لها دلالات في نظر الإنسان. ومن هنا زال التمييز بين المقدس والمادي.
8- أن التحقيق التام للشخصية الإنسانية هدف الإنسان.
9- الاحساسات الشخصية تعبر عن الانفعالات الدينية.
10- لا توجد إذًا انفعالات دينية ومواقف للناس تربطهم بوجود خارق للطبيعة[1].

ومن بيان الإنسانيين يتضح لنا أن "ديوي" لا يعترف بالدين في هذا الزمن ولا بالإله. وأن هذا الكون المنظم البديع وجد وحده، وليس وراءه قوة خارقة. ولذا نراه يقرر سبب رفضه للإله أن لفظ الله قد يدل على كائن معين بذاته، وقد يدل على وحدة جميع المثاليات التي تدفعنا نحو الرغبات والأعمال، وإذا أريد به أحد المعنيين تعارض مع المعنى الآخر، وبالتالي فلا يجوز اعتباره.

يقول "ديوي": « لفظ الله - في سمة من سماته - لا يمكن أن يعني إلا كائناً معيناً بذاته. وفي سمة أخرى يومئ إلى وحدة الغايات المثالية التي تحفزنا على الرغبات والأعمال... فإن المسألة تبرز بوضوح وجلاء على نحو مضاد لعقيدة الأديان القاضية بأن لفظ الله يدل على كائن معين بذاته له وجود سابق على الوجود، ومن ثم غير مثالي»[2].

(1) وليم جيمس. محمود زيدان ص 204 - 205 .
(2) قاموس جون ديوي للتربية جمع رالف. ب. وين، مختارات من مؤلفاته، ترجمة د/ محمد علي العريان. مكتبة الأنجلو المصرية، ط: عام 1964 م، ص 36.

ومن هذا النص يتضح لنا بجلاء شديد أن "ديوي" لا يعترف بالإله، بل يريد أن يقول: إن الله لا يجوز اعتباره، لأن لفظ الله لو كان كائناً معيناً بذاته فهو غير مثالي. ولو كان هذا اللفظ دالاً على وحدة جميع المثاليات التي تدفعنا نحو الرغبات والأعمال فإن هذا يتعارض مع عقيدة الأديان التي ترى أنه كائن موجود محقق منفصل عن العالم. وعلى هذا فالنص يوصلنا إلى النتيجة القائلة: إن الله إذا أريد به أحد المعنيين تعارض مع المعنى الآخر، وبالتالي لا يجوز اعتباره.

وخلاصة القول:

أن "بيرس" انتهى إلى القول بوجود إله، والدين عند "جيمس" و"ديوي" ليس ديناً سماوياً، بل هو عند "جيمس" دين شخصي تجريبي. مجرد فرض نافع. والله شخصية متناهية.

والدين عند "ديوي" دين إنساني، دين طبيعي، عبارة عن التعاون القائم بين أفراد المجتمع، وليس له وجود محقق على سبيل اليقين.

الفصل الثاني
موقف الإسلام من البراجماتية

وقد ضمنته مبحثين

المبحث الأول: الفلسفة البراجماتية في الميزان.

المبحث الثاني: موقف الإسلام من الفكر البراجماتي.

المبحـــــث الأول
الفلســفة البراجماتيــة فــي الميــزان

أولاً: مميزات الفلسفة البراجماتية.

أن البراجماتية تعبر عن المزاج الشخصي للأمريكان، وترفض المطلقات واليقينيات وتقوم على الظن، وتؤدي إلى الشك، وتجمع بين المتناقضات، وتؤكد على الفردية والنجاح الشخصي، وتجعل عملية التعليم أقرب إلى التلقائية يحددها المتعلمون، وسأتعرض الآن لوضع البراجماتية في الميزان، فأذكر مميزاتها وعيوبها من الناحية الفكرية والتطبيقية. وأبدأ أولاً بذكر مميزاتها:

يمكن القول: أن للفلسفة البراجماتية بعض المميزات منها:

1- نظراً لأن هذه الفلسفة اشتهرت بـ "وليم جيمس" ينبغي ألا نضيع حقه، فقد نجح في عدة مواطن كما يقول الدكتور/ محمود حب الله، وهي:

أ- أن "جيمس" نجح في تبيين أن الروح العلمية لا تتنافى مع العقائد الدينية عكس ما فعله تلميذه "جون ديوي" برفضه للدين وأنه عائق للبحث العلمي والتقدم.

ب- نجح "جيمس" في أنه وجد للإيمان بالله مكان طبيعي النفوس، فتبقى النفس مضطربة وثائرة، حتى تصل إليه وتدركه، وحينئذٍ تمتلئ هدوءاً وطمأنينة.

ج- كما نجح "جيمس" في أنه رأى حياة التدين خير من جميع أنواع الحياة الأخرى في هذه الدنيا: فهي التي تقتل روح التشاؤم، وتملأ النفس ثقة وأملاً، وهي التي تجعل الجهاد في الحياة حلو المذاق، وهي التي تجعل هذا العالم عالماً يستحق أن يعيش فيه الإنسان»[1].

---

(1) انظر: العقل والدين. وليم جيمس، ص 190 - 191.

2- أن الفلسفة البراجماتية هي خير مثال لفلسفة القرن العشرين، لأنها تقوم على دعامتين أساسيتين هما: الإيمان بالديمقراطية والإيمان بالطريقة العلمية. وأن الإيمان بالطريقة العلمية هو السبيل إلى تشجيع العلم والعلماء والتوصل إلى هذا الإطار الحافل بالاكتشافات العظيمة في مجال العلم والحياة الاجتماعية. كما أن الإيمان بالديمقراطية هو السبيل إلى الحياة الحرة الكريمة التي تقوم على النقاش المنظم والاقتناع الناجح. بهذا كانت الفلسفة البراجماتية أول فلسفة ناجحة تضع في حسبانها قواعد التغيير وإمكان حدوثه، كما أنها تضع في حسبانها التغير الشامل في كل ميادين الحياة. وهذا هو الذي يلاحظ في هذا العصر»[1].
3- أنها فلسفة تجريبية عملية وجهت التفكير الفلسفي من عالم المثل إلى عالم الواقع مما ترتب عليه التطور بصفة مستمرة، ولكن هذا لا ينتفع فيه إلا في مجال العلوم الطبيعية والرياضية والمنطقية.
4- أن البراجماتية كان لها أثر كبير في «القضاء على جمود التقاليد في غرف الدراسة والإيحاء بجو أكثر حرية، وأنها أدت إلى نشوء علاقات أكثر مودة بين المدرسين والتلاميذ، وأنها شجعت على إدخال الأساليب التي تقوم على نشاط أكثر من جانب التلاميذ»[2].
5- لقد استخدمت البراجماتية أسلوب التفكير العلمي في حل المشكلات، وهذا هو سر تقدم الولايات المتحدة الأمريكية والبحث عن مظاهر الحياة.

وهذا الأسلوب هدف من أهداف التربية الحديثة، لأنها تدرب التلاميذ على استخدام الطريقة العلمية في التفكير»[3].

هذه هي مميزات الفلسفة البراجماتية عند البراجماتيين. فما عي عيوبها ؟.

ثانياً: عيوب الفلسفة البراجماتية:

---

(1) انظر: الإسلام والمذاهب الفلسفية. د / مصطفى حلمي ص 240 - دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع. ط: الأولى 1985م.
(2) التربية عن طريقة النشاط. إسماعيل محمود القباني ص 192. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. ط: الثانية 1984.
(3) انظر: المنهج البراجماتي والتطبيق التربوي. تأليف كوثر عبد الرحيم، ص 74. دار النهضة العربية، بدون.

1- اعتراض شائع بين خصوم البراجماتية يتمثل في: أنه إذا كان معيار الصدق منحصراً في المنفعة، وكان العقل خادماً للحياة العلمية، وكانت المعايير كلها - الدينية والخلقية ومعايير الصدق والكذب على السواء - معايير فردية، أمكننا أن نقول: إن لكل فرد صدقه الخاص به وكذبه الخاص به، وله فلسفته ودينه، وله قواعده الأخلاقية؟ وما هي النتيجة لكل ذلك؟ إنها الشك الكلي في كل المعايير الذي ظن "جيمس" أنه فر منه؟ فهذا هو الذي يواجه الاتجاه البراجماتي ولا يجد له جواباً»[1].
2- اعتراض ثاني وهو اعتراض أساسي في البراجماتية، وهو قائم على أساس التناقض بين نظرية الإدراك الحسي والمعايير، وهما يمثلان جانبين هامين في الفلسفة البراجماتية ولا يمكن قبول أحدهما إلا بإلغاء الآخر، وإذا ألغي أحدهما سقطت النظرية البراجماتية، لأن كليهما لا يمكن أن تفرط فيه البراجماتية، وهما متناقضان وهو تناقض أساسي في صميم البراجماتية.
3- البراجماتية فلسفة لا تحترم أي عادة أو تقليد أو قيمة أو سلوك أو حتى مبدأ، إلا بالقدر الذي يحقق مردوداً نفعياً للفرد، وهي بهذا تضع المفهوم المادي فوق كل اعتبار داخل الحياة الإنسانية، وهو مبدأ يفسد طبيعة العلاقات والحقائق التي لا تنطوي على نفع مباشر، بل هي دعوة إلى جعل الحياة نزعة مادية نفعية فحسب، وفي ذلك إهمال واضح للقيم الأخرى داخل الحياة البشرية.
4- تعمل الفلسفة البراجماتية على تحييد النظم الاجتماعية من الدين؛ لأنها ترى أن الدين مسألة فردية وليست اجتماعية سياسية، ولهذا فإن المجتمعات التي تتبنى هذه الفلسفة لا تعتني بالدين داخل المدارس التربوية بحجة الديمقراطية.
5- ترى الفلسفة البراجماتية أن الإنسان والحياة من نتاج التطور البيولوجي، وفي ذلك إشارة إلى النزعة غير الإيمانية نحو موضوع خلق الإنسان والكون والحياة.
6- الفلسفة البراجماتية لا تتناسب مع مجتمعاتنا العربية والإسلامية، لما تنطوي عليه من أفكار تعارض مفهومنا الديني ومفهومنا الاجتماعي، ونظرتنا للحياة.
7- الفلسفة البراجماتية تؤكد على النفع العملي ولو سلمنا بهذا لأصبحت الفلسفة كلها جرياً وراء تحقيق النفع العملي ولأصبح البحث عن الحقيقة بحثاً ثانوياً بالقياس إلى البحث عن العملي وقد يؤدي هذا إلى هدم الفلسفة نفسها باعتبارها بحث إيجابي عن الحقيقة.

---

(1) انظر: العقل والدين. وليم جيمس ص 182.

8- أن معيار الحقيقة لا يمكن أن نحصره فقط في الميدان الضيق المحدود الذي يرتضيه البراجماتي وهو الآثار العملية للفكرة، فصدق القضايا العلنية والأخلاقية مثلاً ليس محصوراً فيما تترجمه هذه القضايا من آثار عملية في دنيا الواقع والعمل الناتج، فقد آمنت الإنسانية على مر العصور بمفهومات أخلاقية كثيرة - وعلى الرغم من إيمانها المطلق بها - لن تحاول أن تبحث عما لها من آثار عملية»[1].

ومن الآثار السيئة للبراجماتية ما يلي:

1- اللاأخلاقية: علي الرغم من أنها تتقيد ببعض الفضائل كالأمانة والانضباط والدقة ومراعاة المواعيد، إلا أنها ليست مقصودة بذاتها بقدر ما تحققه من منفعة مادية، حيث إنها تفيد الرأسمالي في تعامله مع الغير، فالحق لذاته والباطل لذاته بصرف النظر عما يترتب عليها من جدة النفع والضرر حديث خرافة عندهم[2].

2- الارتباط الوثيق بالحرب عندما تكون نتائجها في صالح الطرف الآخر بغض النظر عن الممارسات اللاإنسانية والأذى والتشرد والضرر الذي يقع جراء تلك الحروب.

3- الانحرافات السلوكية وأظهرها سلوك الإجرام، وعصابات القتل المنظم، وغسيل الأموال وتجارة المخدرات وفتح الباب علي مصراعيه للصراعات[3].

---

(1) تاريخ التربية: النشأة والتطور "دراسة تحليلية لتطور الفكر التربوي" ص 250. مطبعة الأصدقاء بكفر الشيخ - مصر.

(2) انظر مذهب المنفعة العامة في الأخلاق، توفيق الطويل، ص 259.

(3) انظر الجوانب الفكرية في مختلف النظم الاجتماعية، فؤاد زكريا، ص 6.

المبحـــث الثـانـــي
موقـف الإســلام من الفـكر البراجمــاتي

قد تعرضت في المبحث الأول لأهم مميزات وعيوب الفكر البراجماتي، والآن بعد أن وضح أثر الفكر البراجماتي على المجتمعات عن طريق الفكر والتربية، ووضح لنا أن الفلسفة البراجماتية تجمع بين التناقضات وتؤدي إلى الشك، وتؤكد على الفردية والنجاح الشخصي، وتجعل عملية التعليم أقرب إلى العشوائية يحددها المتعلمون. نتعرض الآن لموقف الإسلام من الفكر البراجماتي ومن تطبيقاته التربوية.

وقد وضح لنا فيما سبق أن البراجماتية تضلل الناس فتبعدهم عن المعارف اليقينية والحقائق المطلقة والقيم الفاضلة والأخلاق النبيلة، وذلك لأنها ترفض المطلقات ولا تعترف إلا بالمحسوس المحدود شأنها في ذلك شأن الفكر الوضعي عموماً، وترفض اليقين وتكتفي بالظن حتى في مجال العلم التجريبي. ولهذا سأتعرض لموقف الإسلام الواضح من معارفهم الظنية وحقائقهم النسبية، فالمعارف في الإسلام يقينية، ووسائلها تؤدي إلى اليقين، فالعقائد الإسلامية يقينية. والحق في الإسلام ثابت قطعاً ويقيناً وهو الله سبحانه وتعالى وما يصدر عنه من أحكام، والحقيقة ثابتة لا تتغير بتغير الظروف والأحوال. والدين الإسلامي دين سماوي إلهي، صالح للبشرية جمعاء في كل زمان ومكان.

أولاً: موقف الإسلام من المعرفة عند البراجماتيين:

إن المعرفة عند البراجماتيين معرفة ذاتية فردية تجريبية، ونظراً لأن البراجماتية يرون أنه لا توجد حقائق مطلقة، وفي إمكان العقل أن يصل إليها، ألا أنه لا يعرف أنه وصل إليها. بهذا تكون المعارف التي يصلون إليها معارف ظنية غير يقينية ووسيلتها هي التجربة. وإذا كانت المعرفة عند البراجماتيين ظنية وليست يقينية، فإن نصوص الإسلام تؤكد أن المعرفة الإنسانية التي يصل إليها العقل الإنساني بالوسائل المختلفة فهي نتيجة، ولهذا اشترط الإسلام لكي يكون الشخص مسلماً: أن يؤمن بالغيب إيماناً يقينياً. وهو ما وراء الحواس مما أخبر الله تعالى به في كتابه الكريم، وأخبر به رسوله محمد (ρ) ووصل إلينا بطريق التواتر.

وموقف القرآن من وجوب توفر اليقين للمؤمن بالغيب دلت عليه آيات كثيرة. ففي سورة البقرة وصف الله تعالى المتقين المؤمنين الذين يهتدون بالكتاب الذي لا ريب فيه وهو القرآن، بأنهم هم الذين يؤمنون بالغيب، ويقيمون الصلاة، وينفقون مما رزقهم الله، وأنهم هم الذين يؤمنون بما أنزله الله على محمد (ρ)، وما أنزله على الرسل من قبله وأنهم هم الذين يوقنون بالآخرة. يقول الله تعالى: **ژ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ پ پ ڀ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ژ**[1].

وغير ذلك من الآيات المتعددة في القرآن الكريم، التي توضح موقف القرآن من الغيب واليقين. وهذه الآيات السابقة تجعل اليقين - على وجه العموم - صفة من صفات المؤمنين المتقين.

وهناك آيات أخرى تتحدث عن أمور تفصيلية من الغيب المتعلق بالإنسان عند الموت وبعده، ومن ذلك ما أخبرنا به القرآن الكريم من أن الناس عند الموت أنواع ثلاثة ويخبر الله تعالى كل منهم بمصيره بعد الموت. ويصف الله تعالى كل هذه الأمور الغيبية بأنها حق يقيني. **ژ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ گ گ گ گ گ گ ڳ ڳ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ژ** [2].

(1) البقرة الآيات 1 - 5.
(2) الواقعة الآيات 83 - 96.

وهناك آيات أخرى تتحدث عن تفاصيل غيبية في مجالات أخرى متعددة، ويصف الله تعالى هذه الأمور بأنها حق يقيني. وبذلك يكون هذا الغيب حقيقة يقينية ويمكن معرفته معرفة يقينية.

ومن هنا نجد أن الله - سبحانه وتعالى - خصص معظم القرآن الكريم للمبطلين والمشككين في ثلاث عقائد أساسية وما يتفرع عنها وهي:

1- وحدانية الله تعالى.

2- نبوة محمد (ρ).

3- البعث بعد الموت.

وأقام الدلائل المختلفة لكي يصل الناس في هذه الأمور الغيبية إلى اليقين. كما أقسم الحق بنفسه على أن ما وعد به من أمر القيامة والبعث والجزاء كائن لا محالة - وهو حق لا ريب فيه **ﮋ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﮊ** (1).

وبهذا نجد أن الله تعالى أخبر بأمور غيبية لها حقيقتها الثابتة. وأقام الدلائل عليها ليوصل الناس إلى إيمان يقيني بها، والعقول الإنسانية صالحة لتحصيل هذا اليقين بشأن هذه الأمور.

ومما تقدم نجد أن الإسلام يرى: أن وجود ما وراء المحسوسات حق، لأنه يتمثل في الله سبحانه وتعالى، وما أخبر به من موجودات غير مرئية - ليس هذا فحسب - بل يأمر البشر بأن يصدقوا بذلك تصديقاً يقينياً، ويقيم لهم الدلائل التي تعينهم على الوصول في هذه الأمور إلى اليقين، واليقين موجود فعلاً وهو الأصل. والإنكار لا يستند إلى دليل.

وهكذا نجد نصوص الإسلام تعطي بوضوح موقف الإسلام من المعرفة الإنسانية والوجود، وهو أن العقل الإنساني قادر على أن يصل إلى حقائق يقينية إزاء الوجود سواءً ما كان منه محسوساً أو ما كان منه غائباً وراء الحس.

وبعد أن قدمنا النصوص القرآنية الصريحة التي تدل على أن العقل الإنساني قادر على أن يصل إلى حقائق يقينية ومطلقة، يمكن أن نصف البراجماتية بالبطلان والضلال.

---

(1) الذاريات الآية 23.

ثانياً: موقف الإسلام من الحقيقة عند البراجماتية

الحقيقة عند البراجماتية شيء يصنع مثل الصحة والقوة التي يصنعها الإنسان بكفاحه ونضاله، وليست هناك قوة عليا تفرضها عليه، ولهذا يقول "جيمس": نحن نخترع الحقائق لنستفيد من الوجود كما نخترع الأجهزة الصناعية لنستخدم القوى الطبيعية"[1]. وعلى هذا - حسب الزعم البراجماتي - نحن نخلق الحقائق "الحقيقة" ونخلق الحقيقي "حسب حاجة المجتمع. فالحقائق عندهم نسبية غير ثابتة وليست مطلقة ولا يقينية. والحق فرض عملي، أو مجرد أداة يختبر بها تصوره السابق.

أما في الإسلام فنجد أن الحق هو "الواجب الثابت حقيقته، الذي لا يسوغ إنكاره، هو الشيء الثابت قطعاً ويقيناً"[2]. وفي كتاب "المفردات في غريب القرآن": «الحق يقال على أوجه: يقال الحق لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق **ژ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ژ** [3]. والحق يقال للموجد بسبب مقتضى الحكمة ولهذا يقال: فعل الله تعالى كله حق، **ژ ﯼ ﭙ ﭙ ﮈ ﮈ ﺋﺎﺋﺎ ژ** [4]. وعلى هذا فالحق من الموجودات هو الموجود الحق الثابت الدائم الأزلي الأبدي، الذي لا أول له ولا آخر، والذي لا يحد بزمان ولا مكان، هو واجب الوجود مطلقاً.

ولا يمكن أن يتصف أي مخلوق بشيء من هذا، كما لا يمكن أن يطلق شيء من هذا على أي كائن من الكائنات، لأنها جميعاً متغيرة.

وعلى هذا فالحق هو "الله" سبحانه وتعالى، وهو اسم من اسمائه سبحانه، ولا يطلق على غيره من جميع العناصر والكائنات والمكونات، لأن الحق واحد لا يتعدد، وكل شيء غير الله سبحانه وتعالى قد خلقه الله: متعدداً، لا أحدية فيه، مفتقراً لا استغناء له، **ژ ﺋﻪ ﯨ ﯨ ﯾ ﯾ □ □ □ ژ** [5].

---

(1) تاريخ الفلسفة الحديثة. يوسف كرم ص 418.
(2) التعريفات. تأليف علي بن محمد الجرجاني ص 40، ط: الأولى 1306 هـ - المطبعة الخيرية - القاهرة.
(3) الأنعام الآية 62. المفردات في غريب القرآن. تأليف. الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني ص 126. الطبعة الأخيرة 1961م.= =مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر.
(4) يونس من الآية 5.
(5) الذاريات الآية 49.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الحق، فكل ما أخبرنا به تعالى حق. وعلى هذا يكون الحق من الأحكام أو الأخبار، هو الثابت قطعاً ويقيناً، الصحيح مطلقاً ودائماً الذي لا يتغير بتغير الأحوال والبيئات والثقافات واختلاف وجهات النظر، ولا يتغير أيضاً بتغير الأزمنة والأمكنة والاتجاهات والميول. وهذا الحق من الأحكام لا يكون إلا من الله تعالى. وعلى هذا فليس في الحق نسبية و لا فردية، ولا وقتية ولا مكانية كما هو عند البراجماتيين.

وإذا كان لكل حق حقيقة، فإن الحقيقة هي: «الشيء الثابت قطعاً ويقيناً، يقال حق الشيء إذا ثبت وهو اسم للشيء المستقر في محله»(1).

وفي النهاية يمكن القول: إن الحق في الإسلام هو الثابت قطعاً ويقيناً وهو سبحانه وتعالى، وهو الحق من الأحكام الصادرة عن الله تعالى. والحقيقة ثابتة قطعاً ويقيناً، لا تتغير بتغير الظروف والأحوال، ولا تتغير بتغير الأزمنة والأمكنة.

وأن ما هو عند البراجماتيين من أن الحق فرض أي مجرد أداة يختبر به تصوره السابق وأن الحقائق تخلق حسب حاجة المجتمع، فهي متغيرة متطورة بتغير الظروف والأحوال. فهذا ليس من الإسلام في شيء.

ثالثاً: موقف الإسلام من الدين عند البراجماتية:

رأينا فيما سبق أن الدين عند البراجماتية ليس ديناً سماوياً ولكنه دين تجريبي ككل القيم متطور متغير كلما تغيرت الحياة كما يرى "جيمس" أما "ديوي" فيرفض الدين لأنه عائق للبحث العلمي والتقدم، ويعتبر الدين إنساني طبيعي، وهو عبارة عن التعاون بين أفراد المجتمع، فالدين في الفكر البراجماتي تحول إلي قيمة ملموسة ذات نفع، حسب المنفعة، قد ينفع اليوم ولا ينفع غداً.

وأما الدين في الإسلام فهو دين الله الكامل، لأنه عالج شئون البشر كلها في حياتهم الدنيا وفي الآخرة، ومن هنا كان الدين ضروري للإنسان..

ونظراً لأن الدين الإسلامي دين كامل، فإن العقيدة الإسلامية شاملة بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، وذلك لأنها تشمل الأمم الإنسانية جميعاً، كما تشمل النفس الإنسانية بجملتها من عقل وروح وضمير، فليس الإسلام دين أمة واحدة، ولا هو دين طبقة واحدة، وليس هو للسادة المسلطين دون الضعفاء المسخرين، ولا هو للضعفاء المسخرين دون السادة المسلطين، ولكنه رسالة تشمل بني الإنسان من كل جنس. فلا فضل لأحد على آخر بسبب سلالة أو طبقة، ولكن مقياس الفضل هو العمل الصالح والضعيف الذي لا يستطيع العمل، يمكن أن

---

(1) التعريفات للجرجاني ص 40.

يصل إلى الفضل بالصبر وعدم الاستسلام بضعفه.

ومما سبق يمكن القول:

إن الدين الإسلامي، دين سماوي من وضع إلهي، وهو ضروري لتوجيه الإنسان، وهو أصلح الأديان السماوية وأشملها إلى يوم القيامة. فأين هذا من الدين الشخصي التجريبي النفعي عند "جيمس"؟ وأين هذا من رفض "ديوي" للدين؟. وعلى هذا فلا وجه للمقارنة بين الدين الإسلامي والدين البراجماتي.

أضف إلي ذلك أن نسبية الحقائق والأخلاق حسب المنفعة يؤدي إلي الصراع بين البشر والقوي يأكل الضعيف كل حسب مصلحته وهواه، لأن العقول تتفاوت والمصالح الشخصية قد تتعارض.

E

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، أتوجه في خاتمة بحثي بشكره سبحانه على إتمامه، فهذا من منته وإحسانه، وأخلص إلى تلخيص أهم نتائج البحث فيما يأتي:

1- تبين أن البراجماتية تعني العمل، وأن معيار صدق الأفكار من خلال ما ينتج عنها من منافع ونتائج ملموسة.
2- البراجماتية تهدم القيم الأخلاقية، فالأخلاق عندهم نسبية حسب النفع والمصلحة، فليست هناك حقائق مطلقة تكون أساساً للتعامل بين الافراد، فالمصلحة والمنفعة هما معيار الحكم علي الأشياء
3- وجد من خلال البحث أن الدين في الفكر البراجماتي يكون حسب حاجة الإنسان إليه، حسب احتياجه لشعور ديني، فيكون بالهوي وهذا يتنافي مع منهج الإسلام
4- ظهر من خلال البحث أن البراجماتية تؤدي إلي تطبيق منهج الغابة القوي يأكل الضعيف، وتعطي رخصة لعمل المجرمين و الانتهاكات في الحروب حسب المصلحة.
5- الإسلام يرفض الفكر البراجماتي الذي يخضع كل شيء للمنفعة، فمعيار الصدق والحقيقة لديهم هو المنفعة فما لم يكن نافعا لا يكون حقا وصدقاً، مع أن الحق والصدق يكون نافعا وليس العكس.

K وF

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع البشرية.

1- إرادة الاعتقاد. وليم جيمس. ترجمة د / محمود حب الله، الناشر دار إحياء الكتب العربية - عام 1946 م.
2- الإسلام والمذاهب الفلسفية. د / مصطفى حلمي - دار الدعوة للطباعة والنشر والتوزيع، ط: الأولى 1985 م.
3- أعلام الفلاسفة: تأليف د / هنري توماس. ترجمة متري أمين، الناشر: دار النهضة العربية - القاهرة عام 1964 م.
4- البحث عن اليقين: تأليف / جون ديوي - ترجمة د. أحمد فؤاد الأهواني، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عام 1960 م.
5- البراجماتيزم عند وليم جيمس، رسالة ماجستير، إعداد الباحث محمود زيدان، كلية الآداب - جامعة القاهرة - عام 1956 م.
6- البراجماتية ليعقوب فام. الهيئة العامة للكتاب سلسلة الألف كتاب الثاني. عام 1998 م.
7- تاريخ التربية: النشأة والتطور "دراسة تحليلية لتطور الفكر التربوي". مطبعة الأصدقاء بكفر الشيخ - مصر. بدون.
8- تاريخ الفلسفة الحديثة - تأليف يوسف كرم، الناشر دار المعارف - القاهرة - مصر، الطبعة الخامسة عام 1996 م.
9- تاريخ الفلسفة في أمريكا خلال 200 عام. تأليف هربرت شنيدر. ترجمة د/ محمد فتحي الشنيطي - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، ط: 1964م.
10- التجربة الدينية في الفلسفة البراجماتية، د / سعد صالح - بحث في كلية أصول الدين بالزقازيق - جامعة الأزهر - العدد الثالث عام 1412 هـ - 1991 م.
11- التربية عن طريقة النشاط. إسماعيل محمود القباني. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط: الثانية 1984.
12- التعريفات. تأليف علي بن محمد الجرجاني، ط الأولى 1306 هـ - المطبعة الخيرية - القاهرة.
13- تمهيد للفلسفة. د / محمود حمدي زقزوق، الناشر مكتية الأنجلو المصرية، ط 1979 م.
14- جون ديوي لأحمد فؤاد الأهواني، الناشر: دار المعارف بمصر، ط. الثانية 1968 م، سلسلة نوابغ الفكر الغربي.
15- حياة الفكر في العالم الجديد. تأليف د. زكي نجيب محمود، الناشر مطابع الشروق - بيروت - لبنان، ط الثانية 1402 هـ - 1982 م.

16- حياة الفكر في العالم الجديد. د / زكي نجيب محمود، دار الشروق، ط: الثالثة 1987 م.
17- الديموقراطية والتربية. تأليف / جون ديوي، ترجمة د. نظمي لوفا، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية، عام 1978 م.
18- العقل والدين. تأليف وليم جيمس، ترجمة د / محمود حب الله - الناشر: دار الحداثة - بيروت - لبنان.
19- الفكر المادي الحديث وموقف الإسلام منه. د / محمود عبد الحكيم عثمان، الناشر الدار الإسلامية للطباعة والنشر، ط: الثالثة 1985 م.
20- قاموس جون ديوي للتربية جمع رالف. ب. وين، مختارات من مؤلفاته، ترجمة د / محمد علي العريان. مكتبة الأنجلو المصرية، ط. عام 1964م.
21- المعجم الفلسفي د. جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط 1982 م.
22- المفردات في غريب القرآن. تأليف. الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني. الطبعة الأخيرة 1961 م. مكتبة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر.
23- الموسوعة الفلسفية المختصرة. ترجمة فؤاد كامل وآخرين، مراجعة الدكتور / زكي نجيب محمود، الناشر: دار القلم - بيروت - لبنان.
24- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة. إشراف الدكتور / مانع بن حماد الجهني. الناشر دار الندوة العالمية، ط. الثالثة 1418 هـ.
25- المنهج البراجماتي والتطبيق التربوي. تأليف كوثر عبد الرحيم. دار النهضة العربية، بدون.
26- النزعة البراجماتية في الفلسفة اليونانية. إعداد الدكتور / هاني محمد رشاد بخيت، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة 1985 م.
27- نظرات في الفلسفة الحديثة د / أحمد عبده حموده الجمل، دار الطباعة المحمدية، ط. الأولى 1411 هـ - 1991 م.
28- نظرية المعرفة. تأليف د. زكي نجيب محمود، مطابع وزارة الإرشاد القومي - القاهرة، عام 1956 م.
29- وليم جيمس تأليف محمود زيدان، الناشر: دار المعارف - القاهرة عام 1958م.

فهرس الموضوعات

k

B